

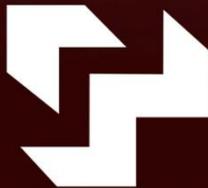
ابحاث محكمة

الندوة الدولية حول تناول الإعلاميّ للرموز  
الدينيّة في ضوء القانون الدوليّ:

التعاطي الإسلاميّ والمواجهة الإعلامية، عبّر أساسيّة من أزمة الرّسوم  
الكاريكاتوريّة، نحو تفهّم متبادل

د. يوسف بن الغياثيّة

دكتوراه في الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان جامعة الحسن الثاني  
(مونريال - كندا)



## المحتويات

2	مقدمة
4	1- أزمة الرسوم الكاريكاتورية بين حرية التعبير وإهانة مقدسات الغير
4	1-1 من رسم الكاريكاتور: حرية التعبير أم ازدراء المقدس؟
5	1-2 تأويلات سياسية للكاريكاتور
8	2- التعصب: " نيوغزينو فوبيا " [Neo-Xenophobia] والهجرة العسيرة
12	3- في نقد ردود الفعل المسلمة
15	4- مقالة الدنمارك في الرسوم الكاريكاتورية
20	خلاصة

## مقدمة

تَجَسَّد قضية الرسوم الكاريكاتورية التي ظهرت في إحدى جرائد الدنمرك 30 يومه شتنبر سنة 2005 مثالا حيا لاحتكاك خطير بين ثقافتين مختلفتين في أسس النظر إلى الذات وإلى المخالف. بل يمكن أن تتطينا صورة حقيقية لما يمكن أن يكون عليه صدام الحضارات. لكننا لا ينبغي أن نعطيها فُرصةً لتصل إلى هذا الحد. وإنما سنذهب مذهب كَوْضُها عبارةً عن "صدام الجهل" [Clash of Ignorance] لأن الواقعة تجسيد للجهل المتبادل بين الثقافتين الـدِّتَيْن في الحضارة الإنسانية الواحدة.

ذلك، أن سنة 2005 وهي سنة هذه الرسوم عُرِفَتْ بكونها أسوء سنة في التواصل بين الضفتين، فضلا عن الاحتقان الشديد الذي عرفه العالم بسبب غزو العراق وتدمير وما تبقى من أفغانستان بعد حروب أهلية طويلة عرفها عقد التسعينات من القرن الماضي. فانضاف هذا المنشور في جريدة دنماركية معروفة بيمينيتها المتعصبة، وميلها إلى الفاشية منذ الحرب العالمية الثانية.

وعليه، فمع التوتر المتصاعد الذي يسود منذ أحداث نيويورك الدامية 2001، والتصاق الإرهاب بالمسلمين نمطيا وإعلاميا، جاءت قضية الكاريكاتورات لتزيد من حدة الأسئلة المفتعلة في أزمة عابرة، متغاضية عن الأزمة البنيوية وهي القراءة غير السلمية للذوات. فكانت أسئلة من قبيل هل نحن أمام حرية تعبير تهددها الدوافع الدينية والمقدّسات؟ بعبارة أخرى أيهما الأولى إطلاق العنان

[، وأعدت نشرها يومه 10 يناير 2006 مجلة نرويجية تُدعى "نورويجيين ماغازينيت" Jyllands-Posten نشرت الرسوم جريدة "يولانديس بوستن" <sup>1</sup>] [Norwegian Magazinet.]

للتعبير بكل أشكاله، أم أن الصدارة لاحترام المقدّس؟ ثم هل يتعارض طرفا هذه المعادلة، بمعنى هل نخل بأحد الطرفين إن احترمنا الطرف المقابل؟ تبقى هذه الأسئلة معلّقة وبدون جواب لحد الآن، في ظل إخراج الأمور عن سياقاتها، واغتنام التجيش، والعواطف الدينية لحل أزمات عميقة وبنوية بطريقة تُعمّقها أكثر وتُجذّرُها أكثر فأكثر.

## 1- أزمة الرسوم الكاريكاتورية بين حرية التعبير وإهانة مقدسات الغير

1-1- من رسم الكاريكاتور: حرية التعبير أم ازدراء المقدس؟

بدا من أزمة الكاريكاتور تشبث مسلمي الدنمارك ومعهم مسلمو العالم بالرموز. وينبع هذا التشبث من قداستها، وبطريقة أرثوذكسية. فقد ابتدعوا أشياء كثيرة لا يسمح المقام بالوقوف عندها كلّها. فالرموز الدينية مقدسةً أشكالا، في حين نجد عمقا مزدوجا، يكاد يُخلُّ بالمبادئ الإسلامية نفسها على اعتبار غياب الأخلاق من الممارسة الشعائرية التي يتشبثون بها ويقدمونها. وعلى الصعيد الإبداعي، نجد أن عددا من الشخصيات الدينية والرموز الإسلامية ومنها الأنبياء وآلهم وصحابتهم لا يُنظر إليهم مثل بقية البشر، وإنما بقداسة وبطهرانية تكاد تُخرّجهم عن الأدمية. وفي هذا معارضة للنص الديني نفسه الذي ما فتى يؤكد بشرية الرسول في غير ما موضع من الكتاب. ويبدو أن تقديس الأشخاص يتعارض كلية مع المقاصد العليا للنص، وإن لم يكن يسمح بالمساس بالاحترام الواجب لهؤلاء الأفراد.

وهكذا، يبقى المسلمون متأخرين في مجال الصورة، وهي التي تؤدي أدوارا حاسمة في أية معركة إعلامية في عصرنا الذي نعيش فيه. ومن ثمّ، نفهم بدهشة أهمية السينما والكاريكاتور، والتلفزة،

وغيرها من الوسائط التي نعلمها اليوم وسيعرف الآتون من الأجيال القادمة غيرها وسيستخدمونها لأغراضهم. فثقافة الغرب ثقافة عريقة في الصورة. ولربما وجدنا تفسير سبّقه في السينما وتحريك الصورة قبل غيره، إلا أن تأخر الوعي بأهمية الصورة وممارسته بحرية وتجرد لم يؤهل المسلمين إلى إيصال خطابهم وإسماع صوتهم بطرق عصرية وحديثة. فبدلاً من توظيف وسائل من العصر، رأيناهم يجيبون على التحدي بما هو خارج عنه، وهو ما يؤكد الصورة النمطية، ويثبتها في لاوعي الإنسان المخالف، غريباً كان أم غيره. وبدلاً من البحث عن المضامين التي ستُنقل عبر هذه الوسائل، نرى كثيراً منهم يسأل عن جليها وجزمها. وبقاء هذه الثنائية يشكل عائقاً بنيوياً في الذهنية المسلمة، ويعيق أي انخراط إيجابي وتفاعلي مع روح العصر، وبشكل أخص حين نتكلم عن مسلمي الغرب، سواء كانوا من أصول عربية أم غير عربية، إلا فئة قليلة جداً.

لقد شكلت أزمة الكاريكاتور المنطلقة من الدنمرك فرصةً ثمينةً جداً لمن يريد الاصطياد في مياه الصّدام الحضاري. وأعطت دفعا كان اليمين المتعصب [Fanatic] والأصولية الإسلامية [Fundamentalism] في أمس الحاجة إليه. وبذلك يتجسد عملياً على الأرض صدام حضاري، وقطيعة ثقافية. ومما يؤسف له كون أصوات الحكمة لا تستطيع أن تملأ في مثل هذا الجو المتوتر، والفضاء المحتقن.

وغير بعيد عن السؤال من رسم الكاريكاتور؟ نتبع المسألة للإجابة، على اعتبار تكامل المعطيات المؤدية إلى جواب يحتمل الإقناع. فنلاحظ كيف تحول عمل فني إلى مجال التأويلات السياسية. ولولم يكن هذا العمل ذا حمولة ثقافية معينة لما أحتَمَل كل هذا الضجيج، وكل هذه التأويلات. تأويلاتٌ دفعت بسفراء البلدان الإسلامية إلى التوجه إلى الوزير الأول الدنمركي "أ. ف. راسموسن" [Rasmussen, Anders Fogh] 2 وأن يطلبوا باسم بلدانهم تدخلا حكوميا لمنع الصحيفة أو اتخاذ ما يردعها عن نشر مثل تلك الكاريكاتورات؛ وهو ما رفضه الوزير جملة وتفصيلا، متذرعا بكون سلطاته لا تتسع لتشمل المدى الذي دعاه هؤلاء إليه، وهو المساس بحرية التعبير، وحرية الصحافة، في بلد له عراقية في هذا الباب وهو احترام الرأي، وتقديس الحرية الفردية. ولربما ظن هؤلاء أن حكومة الدنمرك فوق القانون كما هو شأن بلدانهم.

إذن، باءت محاولة السفراء بالفشل أمام تصلب الوزير الأول، وهو الذي لن يجد أفضل من هذه الفرصة لإيجاد مبررات لردع الأصولية والهجرة الإسلامية، على اعتبار ما سيكون من ردود الفعل العربية والإسلامية داخل البلاد وخارجها، في حال إعادة نشر الرسوم أو رفض الوزير مثلما رأينا. لكن نتساءل في هذا السياق، هل كان الوزير نفسه سيتحرك أم سيبقى جامدا لو أن رسما ساخرا تناول الإبادة النازية لليهود أو ما يسمى بإبادة الأرمن من قبَل الأتراك؟ فلا نشك في كون الكيل بمكيالين سيسري في مثل هذه الحالات. لكن لا ينبغي أن ننسى أن الصحيفة نفسها نشرت في 2003 رسوما تسخر من السيد المسيح، ولم يصل إلى علمنا تحرك إسلامي في اتجاه التنديد

سياسي دنماركي، ورجل دولة، أمين عام حلف شمال الأطلسنتي سابق، وزير أول سابق في بلاده، وزعيم الحزب الليبرالي.<sup>2</sup>

"بيولاند بوستن" أو الدعوة إلى مقاطعة البلاد اقتصاديا، كما حدث مع الكرتون [Cartoon] الساخر، وكأن المسيح لا يعني المسلمين في شيء!! لربما كانت ازدواجية المعايير متبادلة. كما لا ينبغي أن نغفل أن الرسوم الساخرة من المسيح لم تتم إعادة نشرها في صحف أوروبية أخرى، أو عالمية مثلما كان الإصرار على نشر الأخرى التي مست شعور المسلمين الديني، واعتبرت خادشة لمقدساتهم.

يتضح الجواب عن رسم الكاريكاتور شيئا فشيئا. فالرسام الدنمركي أخذ ريشته ورسم، هذا معروف وواضح. لكن المضمون المرسوم مَنْ وَضَعَهُ في كُتُب السَّيَر والمغازي؟ ليس الرسام الدنمركي بالطبع، ولا هو من فهم مقاصد رسالة الإسلام بالطريقة التي تجسدت بالرواية التاريخية كما وصلتنا بغير تمحيص أو على الأقل أُخْرِجَت من سياقاتها التاريخية والمعرفية. وكانت لها (الرواية) صولات وجولات في تحريف الرسالة الإسلامية وإعادتها إلى المربع التوراتي الأسطوري. ليس من رسم الكاريكاتور غير أصحاب الموضوع.

وإذ نستنتج هذه الخلاصة، لا ننفي قدرا من نظرية المؤامرة، التي هي أمر طبيعي في ظل أنظمة ونماذج متنافسة إلى درجة التناحر. فلا أحد بإمكانه أن ينكر احتلال سبتة، مثلا، خارج السياق الديني لحروب الاسترداد [la Reconquista] ولا أحد يعترض على الدور التنصيري كمراس حرب في المشروع الاستعماري الأمبريالي.

إذن، فكلا الثقافتين رسمتا الكاريكاتور بشكل من الأشكال؛ من وقْر المادة من خلال الرواية مادة خام، وكذا من استغل الوضع فاستلهم من المضمون وأطلق خياله وريشته فكانت النتيجة التي

حصلت. وإذ تلقى المسلمون عنفا رمزيا بصورة نمطية أريد لها التكريس والتثبيت، فإنهم ردوا على ذلك بالعنف الفعلي. فلا هذا العنف مقبول ولا ذاك أيضا بالنتيجة. ومن أزمة الكاريكاتور هذه، يمكن أن نلاحظ تكريس نوع جديد من الرهاب ضد الأجانب [Neo-Xenophobia] في ظل أزمة هوية طاحنة.

## 2- التعصب: "نيوغزبنوفوبيا" [Neo-Xenophobia] والهجرة العسيرة

مثلما كان منتظرا، فقد قامت في البلاد العربية والإسلامية موجة غضب عارمة وتداعى المسلمون إلى مقاطعة المملكة الاقتصادية وعدم التعامل مع منتجاتها، وهو ما تم، حيث قاطع المسلمون كافة المنتجات الدنمركية، من الألبان ومشتقاتها إلى أحجار "الليغو" [Lego] التي خُصِّصَت للأطفال. وفعلا كان لهذه المقاطعة نتائج سلبية على الاقتصاد الدنمركي. وفقدت مؤقتا عدة أسواق استهلاكية حيوية وخصوصا في المشرق العربي.

إذن، فلقد قاطع المسلمون الدنمارك بسبب غضبهم على الأوساط الأوروبية التي أيدت الصحيفة. وتطوعت الأوساط الصحفية لإعادة نشر الصور، فضلا عن سلبية الحكومة الدنمركية بهذا الشأن، ولو أن اعتذار الصحيفة لم يكفهم، ولم يشف صدورهم. إلا أن الدنمرك - ومعها أوروبا - لم تقف مكتوفة الأيدي حياء هذه الردود المسلمة.

ذلك أن هذه الأوساط ردت بتعزيز ردود الفعل بمناهضة الهجرة بواسطة أنشطة معادية لها، وبتعديل قوانين تتشدد في هذا الخصوص. وهذه الأنشطة لها تأثيرات كبيرة على سياسات

<sup>3</sup> الدنمرك مملكة دستورية منذ 1866.

الحكومات بهذا الشأن. فهناك تيارات قوية وتتقوى مع الزمن ذات لون زهابي تجاه الأجانب [Xenophobic]، وخصوصا منهم العرب والمسلمين. لكن المفارقة هي الخطاب اليميني نفسه. فهو من جهة يدعو إلى مكافحة الإرهاب الإسلامي الأصولي السياسي [ Political Islamist Fundamentalism]، إلا أن القوانين لا تمس نسقيا [Systematically] غير المسلمين غير المتطرفين وهم الغالبية الساحقة ليس في أوروبا فقط، وإنما في العالم الإسلامي برمته. لكن، كما سبق وأشرنا إليه، فتصريحات "فيلي كلايس"4 تبين أن الاتجاه واضح في اعتماد "عدو" بديل لأيديولوجيا الشرق عقب انهيار جدار برلين رمز الشيوعية عدو الأمم.

ومع تحرشات الأحزاب اليمينية المتعصبة [People's Parties] 5 بالأجانب وتحميلهم مسؤولية كل الأزمات والشروط التي حاقت بمجتمعاتهم، منذ الثمانينات، فإن مناخا من التوتر والتشنج يمكن أن يعطي فرصا للنفخ في رماد "سانت بارتيلماوس" [Saint-Barthélemy] 6 من جديد. وقد مرت

<sup>4</sup> أمين عام سابق لحلف شمال الأطلنتي (1994-95)

<sup>5</sup> ليس اكتشافا أن يبدو اسم (الشعب) في كثير من الأحزاب اليمينية المتعصبة سواء في سويسرا، إسبانيا، أو الدنمرك، أو اسم (الحرية) كما هو في هولندا، والنمسا. ومن حقا أن نطرح السؤال، هل الحرية والشعبية رديفان للتعصب والأفق الضيق، وكره المخالفين؟

[ علامة فارقة في تاريخ أوروبا عموما، وتاريخ فرنسا بشكل خاص. دارت رحى هذه المذبحة الرهيبة St-Barthélemy تُشكّل مذبحة "القديس بارتيلماوس" ]<sup>6</sup> في باريس يومه الأحد 24 غشت 1572 م، وذهب ضحية التعصب الديني الكاثوليكي فيها ما يقرب من 3000 بروتستانت على خلفية تزايد نفوذ زعيمهم [Catherine de Médicis] (1519-1572)، وبايعاز من الملكة الأم "كاترين دو ميديسيس" [Gaspard Coligny de Chatillion] الأدميرال "دو كوليني" [ (1519-1589)، وتحريض. وتعدّ هذه المذبحة، سيئة الذّكر، نقطة سوداء على جبين أوروبا فيما تعلق بالتسامح الديني وطعنا في التعايش بين فئات المجتمع.

أوروبا من نفق التعصب الديني الذي أدى إلى تطهير عرقي في يوغسلافيا السابقة [Jugoslavija]7، حيث تنافس كل من الصرب والكروات لحصد العرقية البوسنية المسلمة، حيث فاق عدد ضحايا التطهير ضحايا المذبحة الفرنسية التي أشرنا إليها. والواقع أنه لا ينبغي أن نسقط من الحساب أن تصل الضفتان إلى مواجهات دامية ستزيد من تعميق الجراح وتفاقم الخلاف. ويمكن أن نضرب مثلا من الدنمرك نفسها. فقد زادت الأمور تعقيدا حين أطلق حزب الشعب الدنماركي الجيل الثاني والثالث من الدنماركيين اسم "بالدنمركيين الجدد" [New Danes]8، ومعنى هذا أن هناك أصناف من المواطن، مواطنة أصلية، بملاح قوقازية [Caucasian] وأخرى بملاح ملونة [Coloured] هو رجوع بهذا البلد الذي كان يُضرب به المثل في الحرية والمساواة، وتكريم المرأة، شأنه في ذلك شأن بقية بلدان سقف العالم.9

لكن الأزمات المتوالية التي تواجهها مجتمعات تخشى العولمة والتداخل الثقافي والعرقي، فضلا عن سياسات لم تكن موفقة في أغلبها فيما يتعلق بإدماج القادمين إليها، وعزلهم عن الثقافة المحلية،

---

[ (1892-1980) عرف الاتحاد اليوغسلافي تصدعات، تُوِّجَت بوصول قوميين *Josip Broz; alias Tito* عقب وفاة المارشال "يوزيب بروز تيتو"7] متطرفين إلى رأس جمهورية صربيا وكرواتيا وامتد الاحتقان إلى التسعينات، بإعلان كل من سلوفينيا وكرواتيا الاستقلال سنة 1991، فتدخل الجيش الاتحادي (أغلبية صربية) بوحشية مخلفا وراءه مذابح في مدن عديدة. لكن المذابح الأكثر شناعة كانت تلك التي نالت من البوسنة والهرسك عقب إعلانها الاستقلال في [ يوليو 1995، علما أن المنطقة *Srebrenica* مارس سنة 1992. ولعل أهم جريمة ضد الإنسانية حدثت في تلك الحرب كانت هي مذبحة "سربيرينيتسا" ] أعلنتها الأمم المتحدة منطقة آمنة.

[ السنوي لسنة 2006، ص. *Euro-MeSCO.14 تقرير اليورومييسكو*8]

[ والدنمرك *Sverige*] والسويد [ *Norge*] والنرويج [ *Suomi-Finland*] يُطلق عادة اسم **سقف العالم** على بلاد الشمال السكندنافية، وخصوصا فنلندا9]، على اعتبار موقعها في أقصى شمال الأرض، فضلا عن كونها مشمولة بالدائرة القطبية. *Danmark*

سبب في مشاكل لا حصر لها. حتى تفاقمت جيء بالمهاجر كبش فداء لتقديمه قربانا في هذا الجو المتوتر.

إن السياسات التمييزية التي سنّتها حكومات أوروبية مهما اختلف لونها السياسي هي التي ينبغي أن تتحمل القدر الأكبر من المسؤولية. فالمهاجرون الأوائل، الذين ساهموا بقدر كبير في إعادة بناء اقتصاد ما بعد الحرب العالمية الثانية، لم تُتَح لهم فرصة السكن بين السكان الأصليين حتى يختلطوا بهم ويتعلموا ثقافتهم، ويساهموا هم كذلك بإغناء المجتمع، الذي قَدِمُوا إليه. بل على العكس، قامت الحكومات باختيار أحزمة المدن، وهوامشها، وهناك أسكنتهم معزولين على أمل أن يعودوا يوما إلى بلادهم التي أتوا منها. وتراكمت سنوات العزلة بكل ما أن تسببه من تكريس لهذه القطيعة والعزلة، حتى إذا جاء الجيل الثاني والثالث، واضطر واضطرت الحكومات إلى التعامل معه كان الوقت أوشك على النفاد. فحدثت الاضطرابات، ووقع التمييز في الوظائف، وحتى في ولوج المؤسسات التعليمية المتفوقة. حدث كل هذا، وكأننا بهؤلاء المهاجرين وأبنائهم أصبحوا عبئا ترسله كل حكومة إلى التي تليها دون حل.

وتعزز الإحباط اليوم بصعود الأحزاب الشعبوية التي لم تدخر جهدا في النفخ على الرماد، وصب الزيت على نار المجتمعات المحتقنة بأزمات ثقافية واقتصادية، ومثقلة بالقلق على الهوية الأوروبية المسيحية تقليديا.

إذن في هذا السياق الرّهابي تأتي الكاريكاتورات يُعبّر اثنان من هذه الرسومات الاثنتي عشر عن رّهابه من الأجنب بتصوير المسلم بكونه إرهابيا، وعنيفا. وهذا يشكل مفتاحا من مفاتيح 10 الإسلامفوبيا<sup>11</sup> [Islamophobia] وتكريسا للصورة النمطية المعروفة عن الإنسان العربي والمسلم بشكل عام.

هذا، وقد كرس هذه الأزمة، التي يفترض أن تكون عابرة، عدم الثقة بين الفرقاء المعنيين بها، وهما العالم الإسلامي والمسيحية التي يتدثر بها الغرب. وفي سياقنا هذا الضفة الشمالية والجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط.

### 3- في نقد ردود الفعل المسلمة

يناضل كثيرون في العالم من مختلف مواقعهم، الثقافية والسياسية والاجتماعية، وغيرها، من أجل احترام حقوق الإنسان، وإقرار الديمقراطية، وتوسيع قاعدة المشاركة بأنواعها. ومن حقوق الإنسان احترام المعتقدات، واحترام إيمان الأفراد والجماعات ومقدساتهم. وهذا مبدأ أساس وصحيح، في كل أرجاء العالم، وهو هدف مشروع، وحلم يُراد تحقيقه منذ عصور سحيقة، ويبقى الأمل في جعله واقعا لكونه لم يتحقق بعد بشكل مُرضٍ لفطرة الإنسان.

ولما كان المسلمون يقدسون الرسول، ويعتبرونه الممثل الأسمى للإسلام، فإن أي تعريض به، أو نقد له، أو سخرية من شخصه يُعد جريمة في نظر الغالبية الساحقة من المسلمين، ونحن نتحدث عن الرأي الغالب، ولا نتحدث عن من يتخذ العلم سبيلا.

<sup>10</sup> تقرير اليوروميسكو، م. س.

<sup>11</sup> رّهاب الإسلام.

وانطلاقاً من هذه الثابتة، نجد أن الكاريكاتورات التي صدرت في تلك الصحيفة بالدنمارك لم تقع في الوقت المناسب، ولا اختارت الصحيفة الشخص المناسب موضوع سخريتها. فالوقت هو وقت احتقانٍ شديدٍ، وتوترٍ عالٍ، أعقب أحداثَ نيويورك، والحربَ على أفغانستان، ثمَّ اجتياحَ العراق، وتدميرَ بُنيته وتخریبِ الذاكرة العربية والإسلامية، وتفتيتِ اللُّحمة العرقيّة، وتفكيكِ نسيجِه الاجتماعي. هذا دون أن ننسى أن قضية فلسطين لم يُحسَم بشأنها بشيء من العدل تجاه أصحاب الأرض الأصليين. إذن، في هذا المناخ، أتت تلك الرسوم، إن لم تكن قد أتت في سياق يكمل المشروع الغربي الأمريكي، ويُحكّم الحلقات التي يراد من خلالها محاربة ما اصطُح عليه بالإرهاب.

ومع اتفاقنا على مبدأ احترام المعتقدات، نتساءل ما الذي تمَّ رسمُه بالفعل في الكاريكاتور الدنماركي؟ يبدو من تلك الرسومات وجهان؛ شكلي ومضموني. فمن حيث الشكل، يركز الرسم على الهيئة التي يتصورها إنسان غربي جاهل بحال مسلم، والصحيفة صدرت في الشمال، أي في سقف العالم. ليست هذه البلدان على احتكاك كبير بالعرب والمسلمين احتكاكاً كافياً. ومن جهة أخرى، فهو يكرس النظرة الاستشراقية والصورة النمطية التي أشرنا إليها، ومن ثمَّ، يعزز العداة الشعبي، بعد أن تحققت العداة الاستراتيجي من قِبَل الحكومات اليمينية المتعصبة لنموذجها. هذا، ويمكن أن نضيف أن الشكل الذي يراه الدنمركيون على المسلمين بدأ يتكرس فعلاً، ويُقَعَد له دينياً وتأويلياً. فمن المبالغة في إعفاء اللحي، والعمامة والتميز الانطوائي في اللباس

والهيئة، والكلام، مما يثير حفيظة أي قوم ويكرّس عزلة المقيم في البلد المضيف.12 وسواء كان مهاجرا مؤقتا أو مواطنا من أصل مهاجر أو من البلد نفسه، فإن التمايز عن المجتمع يبقى أمرا غير مقبول. والحقيقة أننا لا نصادر الناس حقهم في لباس ما يريدون، والتزيي بالأشكال التي تريحهم وتنسجم مع ثقافتهم وإنما نعيب عليهم التميز الرمزي، بطريقة مستفزة.

ولا ينبغي أن يغيب عن حسابنا حساسية قضية المساواة في تلك البلاد. فإذا أخذنا، على سبيل المثال، فنلندا، نجدها تتصدر بلدان العالم في الشّفاية، ومساواة الأجور بين الجنسين. فمن من بلدان دار الإسلام التي قديم منها المهاجرون - سواء من توطن منهم أم لا - له مرتبة مُشرفة في هذا الباب؟ فحين نرى من المسلمين من لازل يعتقد اعتقادا بضرورة تأخير المرأة في الصفوف، سواء أكان الأمر للعبادة أم لغيرها، في واقع متقدم يساوي بين أفرادها، باعتبارهم مواطنين. ثم إن هاته البلدان لم تحصل على المكاسب التي نتحدث عنها هدية من السماء، ولكنها ناضلت من أجلها بالغالي والنفيس، بمعرفتها قيمة الزمن والحياة، وتوسلت بالعقل والعلم. فالديانة السائدة هي المذهب اللوثيري. ونحن نعلم ما أحدثه الفكر اللوثيري في أوروبا منذ القرن الخامس عشر والسادس عشر، والدماء التي سالت من أجل المكاسب التي نتحدث عنها اليوم. فلوثر رفض

---

يمكن أن يقول قائل: لماذا لا يُنظر إلى الحاخام أو اليهودي الأرثوذكسي ذي اللحية الطويلة، والصفائر المفتولة بالمنظار نفسه كما يُنظر للمسلم؟ لكننا نقول<sup>12</sup> إنه لكي يصل الإنسان إلى الاعتراف الكامل والتوقير من الآخرين عليه أن يبذل مزيدا من الجهد والمواظبة حتى يثبت جدارته في مجتمع الاستقبال. فلا ينبغي أن نظن أن اليهود والإيطاليين والبولنديين والأرمن واليونان استقبلتهم المجتمعات التي هاجروا إليها بالورود. ولكنهم استقبلوا بالصور النمطية، والعنصرية والتمييز. لكنهم أثبتوا كفاءتهم وجدارتهم وناضلوا سلميا، واندمجوا في تلك المجتمعات، والنتيجة كانت اندماجهم، بل ومنهم من أصبح على رأس المجتمعات المستقبلية. ونكتفي بمثال الرئيس الفرنسي (مَجري الأصل) "نيقولا ساركوجي". لذا، نرى أنه من المحتم أن ذلك يتطلب وقتا ربما أطول من المسلمين حتى يُعترف لهم عن جدارة بمكانهم إن استحقوه.

الدخول في الحلف المقدس ضد العثمانيين، وعيا منه بكونهم لم يكونوا يشكلون خطرا يستلزم ذلك الحشد، في الوقت الذي رأى أن الخطر هو في التنكر لحرية الضمير التي صادرتها الكنيسة لقرون. فالخطر بالنسبة إليه يأتي من مصادرة الحريات الفردية. باختصار، لا يمكن أن يفرض القادم الأقلية على المجتمع الأغلبية قوانينه وشريعته، وتقاليدته التي لا لم يعد هذا المجتمع يراها سوى في متحف السنين الجمعي. فالتواصل الثقافي، والتفاهم على مثل هذه القواعد ضروري ومحط مراجعة. ولا ينبغي للمسلمين أن يعتقدوا أن احترام مشاعرهم سيأتي صدقة من خصومهم، أو من مخالفيهم، حتى لو لم يكونوا يناصرونهم العداء. فما دامت الحريات الفردية والجماعية لا تلقى أي احترام، فكيف يطالبون غيرهم باحترامها؟ لكن لا ينبغي أن نعطي كل الحق والتبرير لمن تجاوز المبادئ التي يناضل من أجلها، إن كان يدعي أنها إنسانية، فلا ينبغي أن تتجزأ، أو أن يستفيد قوم دون قوم، أو نساء دون نساء. فمفتاح القضية في الاحترام.

#### 4- مقالة الدنمارك في الرسوم الكاريكاتورية

سنكتفي بمثال واحد هو ما قاله "فليمغ روز" [Rose, Flemming] في مقال له بصحيفة "واشنطن بوست" [The Washington Post] 13 يُدافع فيه عن سبب نشره للرسوم الكاريكاتورية. فقد طالع قراءه في مقاله " لِمَ نَشَرْتُ هذه الرسوم الكرتونية؟"، باستباق تبني

<sup>13</sup> Rose, Flemming, *Why I Published those Cartoons*, in *The Washington Post*, Sunday, February 19<sup>th</sup>, 2006, B01.

[ التي قامت بنشر الرسوم الإثني عشر *Jyllands-Posten* وُلِد سنة 1958 م، ويشغل "فليمغ روز" محرراً ثقافياً بالصحيفة الدنمركية "بولاند بوستن" ]  
الساخرة من المسلمين ونبينهم، يومه 30 شتبر 2005.

مواقف أي معارض للنشر. بل إنه وصف هذا النشر بكونه عملاً "طفولياً، وغير مسؤول. خطاب كراهية. استفزاز، مجاني من أجل الاستفزاز"، ويذهب إلى أن "حرية النشر لا تعني أن الإنسان يمكنه أن ينشر كل شيء...!"<sup>14</sup> وكأنه يتبنى في مقدمته موقفاً واضحاً وهو أنه ليس مع نشر الرسوم، التي اعتبرها المسلمون مسيئةً وساخرةً من نبي الإسلام. ويضربُ أمثلةً بضرورة احترام الذوق العام، وعدم استفزازِ الشعور بنشرِ صورٍ إباحية، أو صورٍ خادشةٍ للشعور؛ مثل صور الضحايا - سواء في الحروب أو الكوارث - وينطبق الأمر على الكلمات البذيئة وغيرها. وهذه المواد، يؤكد "روز" أن صحيفته نادراً ما تسمَح بنشرها على صفحاتها. ويقول في هذا السياق، مستنتجاً، كون صحيفته ليست أصولية في دعمها لحرية التعبير. وهو بهذا يُعَرِّضُ بالأصوليين الذين لا يقبلون حرية التعبير على إطلاقيتها. بمعنى أنه هو الآخر ليس متشدداً في دفاعه عن النشر المطلق لكل شيء.

لكن قضية الرسوم الكاريكاتورية تختلف من حيث طبيعتها.<sup>15</sup> فبالنسبة إليه فتلك القضايا تتعلق بالذوق العام والأخلاق، أما الرسوم فهي تتعلق بقضية أساسية وهي الرقابة الذاتية في أوروبا [Self-Censorship in Europe] التي يتسبب فيها توسيع الخوف والحذر من معالجة أية

<sup>14</sup> ترجمتنا بالسياق، وليست حرفية، أما النص الأصلي فقد ورد كما يلي:

*"Childish. Irresponsible. Hate speech. A proclivity just for the sake of provocation." ... Critics of 12 cartoons of the prophet Muhammad published in the Danish newspaper Jyllands-Posten have not minced their words. They say that freedom of expression does not imply an endorsement of insulting people's religious feelings, and besides, they add, media censor themselves everyday. So, please do not teach us a lesson about limitless freedom of speech."*

<sup>15</sup> "روز، فليمينغ"، م. س.

قضية تتعلق بالمسلمين، أو ما له ارتباط بالإسلام، بشكل عام. هذه هي قضية "ف. روز" المركزية  
وهاجسه الكبير.

وفي هذا السياق، يعتقد "روز" بأن هذه القضية تتطلب انخراطا لمسلمي أوروبا المعتدلين، بل  
يجب تحدي هؤلاء لكي يرفعوا أصواتهم عاليا بها. بمعنى، وجب دفع المعتدلين إلى المشاركة في  
النقاشات الدائرة حول الإسلام، وخصوصا ما وجب مراجعته من هذا الإسلام.

وباختصار، يُصرِّح "روز" بأن هدفه من نشر الرسوم الكاريكاتورية واضح وبسيط، ولا لبس فيه.  
ويتجلى ذلك في دحر الرقابة الذاتية من قبل الضوابط والحدود المفروضة على التعبير. إذن، فسِرُّ  
القضية وجوهرها يكمن في "حرية التعبير". والحقيقة أن حرية التعبير لا تعرف انتعاشا في الغرب  
ولا في الشرق، لا في الشمال ولا في الجنوب. فكأننا بالإقدام على هذا الفعل؛ أي النشر، يتمكن  
الأوروبي من التغلب على حواجز ذاتية، يرى نفسه قبل فعل ذلك غير قادر على نقاشها والخوض  
فيها. وليس الحساب بالخوف من الطائفة المسلمة، فهذه أقصى ما ستفعله ستتظاهر كما فعلت  
في السابق. إذ، يبدو، في تقدير "روز"، أن المسألة تتعلق بالذات الأوروبية أكثر من الموضوع. وهذا  
منحى استشراقي، وهو الحديث بدلا عن "هؤلاء" باعتبارهم موضوعا، لا لكونهم ذواتٍ تستطيع  
التعبير الحر عن نفسها.

ويمكن أن نجد تحليلات قيمة في هذا الاتجاه، ضمن ما أنتجه "إدوارد وديع سعيد" [Edward W. Said] (1935-2003)، في الاستشراق [Orientalism]، والثقافة والإمبريالية [Culture and Imperialism]، ومنه ما أورده الباحثة سعيد عن "جول أرماند" [HARMAND, Jules] متحدثا عن

نقطة الانطلاقة التي وجب القبول بها هي التراتبية بين الأعراق والحضارات، وأن العنصر الأوروبي ينتمي إلى العنصر الراقي، وأن حضارة أوروبا هي الأرقى. وحسب "أرماند"، ليس هذا التفوق نابعا من القوة الاقتصادية، أو التفوق العسكري، لكن التفوق يكمن في العلو الثقافي والأخلاقي.<sup>16</sup> وفي الإطار نفسه، يمكننا أن نجازف ونعتبر "روز" يستنجد بهذا التعالي الأخلاقي الذي يريد توظيفه وسيلةً لغايةٍ هي التغلب على التابوهات، ومناقشتها، وإدخال المسلمين المعتدلين إلى دائرة الضوء. وليس أفضل من رفع السقف والتصعيد باختيار رمز أعلى من رموز الديانة الإسلامية، وهو النبي نفسه. ويعزز "روز" التدليل على موقفه بالتمثيل بالمسيح الذي لم يسلم من الصحيفة نفسها بالسخرية منه والتندر سنة 2003، كما سبق وأشرنا. وبأسف "روز" لكون كثير من المثقفين لم يريدوا الخوض في قضايا المقدسات الإسلامية، وينعي عليهم هذه الرقابة الذاتية. إلا أن صحيفته قررت أن تلتزم بمبدأ واضح حسب ما كتب في مقاله وهو "لا تقل، لكن أر".، إن صح هذا التعبير، وقد ورد في النص الإنجليزي [Show; don't tell]. ومعنى هذا أن الصحيفة قد انتقلت من التفكير الصامت والقول إلى الفعل الصارخ والتنفيذ، أي "الأمر ما ترى لا ما تسمع". وقد رأى فعلا من رأى، وسمع أيضا من سمع. وكانت النتيجة سيئةً، في المجمل. فقد طالب المتضررون بالمقاطعة الاقتصادية لمنتجات المملكة الدنمركية؛ وطالبوا برفع سقف ما يُطالب به حكاهم،

<sup>16</sup> *It is necessary, then, to accept as a principle and point of departure the fact that there is a hierarchy of races and civilizations, and that we belong to the superior race and civilization, still recognizing that, while superiority confers rights, it imposes strict obligations in return. The basic legitimation of conquest over native peoples is the conviction of our superiority, not merely our mechanical, economic, and military superiority, but our moral superiority. Our dignity rests of humanity. Material power is nothing but a means to that end.* Jules HARMAND, op. Cit. Edward W. Said, *Culture and Imperialism*, p. 17.

فضلا عن أعمال العنف التي عمت في بلدان المشرق، من قبيل هجوم الأهالي على السفارة في سوريا ومقرات الاتحاد الأوروبي في غزة، مما زاد الصورة النمطية تكريسا في العالم غير الإسلامي. لكن الصحيفة كسبت رهان الحاجز النفسي، وخطت الخطوة الأولى. وكان من نتائج هذا الفعل وتداعياته أن تشجعت صحف أخرى وأعدت نشر الرسوم، كما أنتج النائب الهولندي "خيرت فيلدرز" فلما هذه المرة عن القراء سماه فتنة [Fitna] وشبهه بكتاب كفاحي [Mein Kampf] الذي كتبه "أ. هتلر" [Hitler, Adolf] (1945-1889) في سجنه، وقرنه بالعنف والدموية والتعصب. وهو تجنّ على القراء، وتبسيط لخطابه، بل إنه تعامل بمعايير مزدوجة، إذ لو قرّن الكتاب المقدس بمثل ما قرن به القراء، لبلغ حدا أدنى من المصادقية، مع اعتراضنا على أن الكتاب المقدس كتاب عنف. فإن استند إلى سورة التوبة التي نزلت بغير بسملة، وتضمنت آيات يعتمد عليها المتطرفون ويستعجلون تمثّلها وتطبيق آيات السيف، ويرى المعتدلون أن الوقت ليس وقتها وهم في النتيجة سواء، من جهة، فإن سفر يشوع يتضمن هو الآخر مقاطع تحتفي بالإبادة الجماعية وخصوصا حين يبلغ أريحا. 17

فالقضية تحتاج إلى تأنّن، ودراسة وليس إلى أحكام متسرعة، لكسب بضع مقاعد في البرلمان أو تشكيل حكومة. إن قضية العنف والكتب المقدسة تحتاج إلى وقفات وليس إلى مزايدات

يشوع، 8: 2- فَنَفَعُلْ بِعَايِ وَمَلِكِيهَا كَمَا فَعَلْتَ بِأَرِيحَا وَمَلِكِيهَا. غَيْرَ أَنَّ غَنِيْمَتَهَا وَيَهَائِمَهَا تَهْبُؤُنَهَا لِنَفُوسِكُمْ. اجْعَلْ كَمِينًا لِلْمَدِينَةِ مِنْ وَرَائِهَا». 17/

10: 28- وَأَخَذَ يَشُوعُ مَقِيدَةَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَصَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ، وَحَرَّمَ مَلِكِيهَا هُوَ وَكُلُّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يَبْقَ شَارِدًا. وَفَعَلَ بِمَلِكِ مَقِيدَةَ كَمَا فَعَلَ بِمَلِكِ أَرِيحَا./

10: 30 - فَدَفَعَهَا الرَّبُّ هِيَ أَيْضًا بِيَدِ إِسْرَائِيلَ مَعَ مَلِكِيهَا، فَصَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ وَكُلُّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يَبْقَ بِهَا شَارِدًا، وَفَعَلَ بِمَلِكِيهَا كَمَا فَعَلَ بِمَلِكِ أَرِيحَا.

يلاحظ من هذا السّفْر أن هناك خلطا بين طقوس القتال وطقوس الزيارة والحج المقدس. لكن السياق الذي من أجله أخذنا أمثلة يفيد في ظاهره القتال.

انتخابوية كما هو الحال في أوروبا على الأقل. فهذه قضايا يحلها المؤرخون، والدارسون للكتب المقدسة، والمختصون لأن أي لعب على مشاعر العامة هو لعب بالنار، وإشعال لنعرات طائفية تأتي على الأخضر واليابس. وقد أعطينا مثال الحروب الدينية ومحاكم التفتيش، دون أن ننسى التطهيرات التي حصلت في تاريخ المسلمين وإن كانت الدموية والعنف دون مثيلاتها في أوروبا. لكن لا الغايات ولا الوسائل كانت مسددة.

وانطلاقاً من هذا الهاجس، وجب العمل على تقوية الحرية، وهذا المطلب الإنساني. ولئن اختلف علو السقف من ضفة إلى أخرى، فإنه يبقى على كل حال مطلباً ينتظر الغرب تعزيره، وينتظر الشرق ممارسته، على اعتبار أنه لم يتعود على الحرية الفردية كما هو متعارف عليها كونياً.

## خلاصة

إن الدروس والعبر التي وجب استخلاصها من قضية الرسوم الكاريكاتورية كثيرة سنقف عند بعضها، داعين إلى الانتباه إلى جانبها المشرق، وإن أساءت إلى مشاعر كثيرين في العالم، وتعدت المسلمين إلى غيرهم ممن تضامن معهم.

ومن هذه الدروس التي على أصحاب الشأن أن ينتبهوا إليها:

1- إعادة النظر في الموضوع أي في قضايا العقائد. ونعني بذلك استعجال تمحيص المعتقدات وما يتصل بها سواء كان أنبياء أو رؤسلاً أو شخصيات لها علاقة بهؤلاء، ونزع التقديس عن البشر مهما كانت مكانته. وحيثيات ذلك أن عدم تقديسه لا يعني تقليلاً من أهميته أو دوره التاريخي، وجهده

الإصلاحي. ولعل تحريك هذا الساكن سينعكس على المسار الحقوقي والاجتماعي ويحرر الإنسان المتوسطي الجنوبي من قيود كثيرة وسينهض همته إلى تعاقدات اجتماعية جديدة.

2- إن ما جاء في الرسوم من مضامين لا ينبغي النظر فيه على أنه سيء كله، وإنما على المعنيين بها أن يبادروا إلى مراجعة ما وصل إليهم من روايات سواء تعلق بالحدث أو ببقية الآراء المروية هي الأخرى. ومعنى ذلك أنهم سيتحررون من المرويات التي تخرج عن دائرة العقل، والعلمية وإبقائها ضمن الاستئناس التاريخي. وبذلك يتخلصون من عبء يُثقل كاهل المؤمنين، وينغص حياتهم الاجتماعية، ويوقعهم في ازدواجية سياسية، وقانونية، وتشريعية تُعطل حياتهم ومصالحهم سواء كانت قريبة أو بعيدة المدى.

3- ووجب على المعنيين أن يقبلوا بنقد الآخرين كيفما كان، والاقتناع بكون الرسوم جعلت موضوعها محمداً، لكنها تعالج المحمديين، وليس محمداً نفسه. أي إنها تسخر من الذين ينتمون إلى دين محمد، وليس محمداً، كما أكدنا أعلاه. وإذ لا نستبعد المؤامرة، لكن، وجب ألا تخرجنا عن جادة الصواب، ولا أن ننسينا الإشكاليات المعيقة والبنوية المرتبطة بالعقائد والشرائع الإسلامية نفسها، باعتبار ابتعادها عن الكتاب وما جاء به من مبادئ، لصالح إملاءات سياسية تحولت إلى عقائد راسخة ومقدّسة.

4- تنشيط النقد الذاتي بجرعات أكبر، وبفسح المجال أمام الحريات الفردية والعامّة، فالسياق العالمي لم يعد يسمح بالانتظار الذي أصبح بنويوا في العالم الإسلامي عموماً. فمبادرات النقد ومراجعة ما وصلنا من تراث فكري أولى من انتظار مبادرات الآخرين وبعدها يأتي الاحتجاج

بالطرق غير الحضارية مثلما شاهد العالم في مناسبات عديدة. فرواية سلمان رشدي قُتِل في سبيلها كثيرون خرجوا للاحتجاج عليها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءتها. فعلى قدر الفعل وجنسه وجب أن يكون الرد.

إن التعاطي مع الإعلام وما يترتب على الصور النمطية التي استطاع أن يزرعها ليس فقط في ذهن الإنسان الغربي، وإنما تعدته إلى الإنسان المسلم نفسه، يجعلنا أمام مسؤوليات مضاعفة، لذا، يفترض الموقف جهودا جبارة على جبهتين. الأولى هي الواقع الغربي، بحيث يجب أن ننهج سياسات إعلامية جديدة تستجيب للغة العصر، وتحدث إليه بالتقنية المناسبة والمكان المناسب والزمان المناسب أيضا. أما الجبهة الثانية، فتتمثل في الجسد المسلم نفسه، بحيث يجب أن نناضل من أجل تغيير عقائد وعقليات تبتعد عن الخطاب القراءاني المؤسس، وتعمل على تضيق خريطة الوعي، تضيقا يستجيب لمتطلبات حياة كريمة منطلقة من الثقة في النفس وحب الحياة، لعطاء جيد ومتميز للمحيط الذي يوجد المسلم فيه، أو الذي أوجده القدر فيه. إنها عملية تفاوضيّة، تقتضي صبرا وأناة، ومبادرة، وليس انتظار أن يصحح الآخرون أفكارهم عن المسلمين.